مجلة الترجمة واللغات المجلد 16 العدد 2017/02، ص. 130-139
Revue de Traduction et Langues Journal of Translation and Languages
ر ت م د :1112-3974, ر ت م د: إ 2600-6235

اللغة عند مصطفى ناصف: دراسة وتقييم

The Language of Mustafa Nasif: Study and Evaluation

د. قدور ابراهيم محمد
Dr. Kaddour Ibrahim Mohamed
جامعة وهران1 أحمد بن بلة - الجزائر
University of Oran1 Ahmed Ben Bella-Algeria
kadbramoh@hotmail.fr
مختبر الترجمة وأنواع النصوص
Laboratory of Translation and Text Typologies
0000-0000_000z_9665_138x

تاريخ الاستلام: 16/ 10/ 2017; تاريخ القبول: 31/ 12/2017; تاريخ النشر: 31/ 12/2017

***Abstract**: Language represents a decisive index of great interest in Mustafa Nasif's writings. In his critical approach he devotes several chapters to give an in-depth view about language and related issues. The author deems that life with all its forms ranging from political to sociocultural intervenes in having great impacts on ways of using language by its people and ways language use is seen by non-native speakers. According to him, the sociocultural encounters may, through time, generate new forms of language as well as novel expressions. Namely, through quotidian use of language, the latter can either possess more simplified forms or rather more complicated structures that in themselves can cause further implications of comprehension hardships. Out of realizing the primal intentions of the author, the current paper intends to delve into the realm of analyzing the discourse of Nasif in his writings and through which spread the sphere of study related to literature and linguistic aspirations. The work will allot space to debate the aesthetic language design in the works of the author and its influence on the message encoded in the linguistic forms. A special attention will be shed throughout the article to differing views about language in the literary discourse as seen by ancient and contemporary authors on equal footing.*
Keywords: *Language, Ancient writer, Contemporary writer, Linguistic study, Contemporary eloquence*

الملخص: حظيت اللغة باهتمام كبير وحيازة معرفية لدى مصطفى ناصف. فوقف مليا عندها مخصصا لها فصولا كثيرة. يرى أن الحياة بمختلف أشكالها السياسية والاجتماعية والعقائدية كان لها انعكاسات كبيرة على اللغة. فقد

المؤلف المرسل: قدور ابراهيم محمد

غيرت مجراها، وخلقت فيها أنماطا تعبيرية جديدة. ومما ينتج عن استعمالات اللغة أضرار كثيرة. فقد تبسط الأمور الصعبة دون التعويل على أسباب موضوعية، وتجنبنا تحمل مشقة الفهم والتعمق في إدراك حقائق الأشياء، وتقرب الأمور المتباعدة، وتجني على مبدأ المعرفة الصعبة، وتلفت انتباهنا إلى جانب دون آخر. وتبث فينا الانفعال حين نكون محتاجين إلى التفكير والتأمل. فنحن في حاجة إلى توسيع مجال الدراسة اللغوية للتمكن من اكتشاف هده المخاطر، وتدارك هدا النقص. نحاول في هذا المقال تتبعه لها عند القدامى والمحدثين. ومعرفة ما هي التصورات التي ينبغي أن تكون عليها الدراسة اللغوية من اجل تأسيس بلاغة حديثة قائمة على دعائم تختلف عن تلك المتداولة.
الكلمات المفتاحية: اللغة - القدامى - المحدثين -الدراسة اللغوية - بلاغة حديثة.

حظيت اللّغة باهتمام كبير عند مصطفى ناصف فوقف مليّا عندها مخصّصا لها فصولا كثيرة. نحاول في هذا المقال نتبّعه لها عند القدامى وعند المحدّثين وما هي نظرته الخاصّة لها.

يرى مصطفى ناصف أن فكرة الصراع بين المعتقدات التي خلا من مظاهرها العصر الجاهلي وتميز بها العصر الإسلامي بسبب ظهور الإسلام ولّدت حركة قويّة في هذا المجال هي التي جعلت البلاغة ظاهرة إسلامية لا جاهليّة. وكلمة الصّراع تعني الاختلاف في وجهات النظر بين الأطراف المتخاصمة مما أفرز حركة يعبّر عنها بلفظ الاقتناع والجدل. ومن ثم ذهب إلى القول «بأن البلاغة مرادفة لبعض مظاهر تأثير الصراع العقائديّ في اللغة[1].

وحديثه هذا يبرز مدى اختلافه مع الأقوال التي ترى أن أوّليات البحث في البلاغة العربيّة تلتمس في مناظرات الشعراء وفي المجالس التي يتصدّر للحكم فيها على الشعر أمثال النابغة الذبياني، وكذلك فيما يثار من جدل ونقاش حول الشعر الذي كان ينشد في أسواق العرب وأنديتهم. ومنها تنقيح الشعر ولتجويده مما يدل على أن الشاعر كان يلم بمقاييس بلاغيّة ويطبّقها على شعره ويخضعه لها[2].

وبناء على هذا يرى أن الحياة بمختلف أشكالها السياسيّة والاجتماعيّة والعقائديّة كان لها انعكاسات كبيرة على اللّغة. فقد غيّرت مجراها، وخلقت فيها أنماطا تعبيريّة جديدة «فلا غرابة إذا زعمنا نتيجة لهذا كلّه أن تاريخ البلاغة العربيّة هو تاريخ انطباع الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والعقائديّة على اللّغة.[3]»

[1] اللغة بين البلاغة والأسلوبيّة، د ط، 1989، مطبعة النّادي الأدبي الثقافي، السعوديّة، ص: 70.

[2] ينظر تاريخ البلاغة العربيّة، عبد العزيز عتيق، د ط، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ص: 10.

[3] ينظر اللغة بين البلاغة والأسلوبيّة، مصطفى ناصف، ص: 12.

يربط مصطفى ناصف اللّغة بالشرطيّة التّاريخيّة المتّسمة بحدّة الخصومة السّياسية التي برزت على الأقلّ في العصر الأموي. كان من الطبيعي أن يلجأ هذا الخلاف السّياسي إلى اللّغة، ويشتدّ طلبه عليها كي يستعين بها. فأصبحت تستعمل كوسيلة من وسائل القهر والخوف أو ما يقابلها من القبول. كما أضحى استخدامها يعني القدرة على إيهام الصّدق، وتعبيرا عن قدرة تحوّل الشّعر، وامتلاكها القدرة من أجل الحصول على المنافع. ومن أجل هذا ينبغي ألا تشتبه أمور البلاغة في التّراث العربي في بعض استعمالاتها بأمور الفن البعيد عن هذه النظرة[1].

وعلى كلّ فقد كانت فكرة تحقيق الأغراض دليلا على البراعة. ولا يتحقّق الغرض إلا إذا استجاب السّامع للمتكلّم أو استطاع المتكلّم أن يوجّه المستمع إلى حيث يريد. أصبح البحث عن الوفاق بين المتكلم والمستمع هو الموضوع الذي يدور حوله البحث. ونتيجة لهذا أصبح البحث عن التّفاهم السّطحي من أهم أبحاث اللّغويين تحت اسم البلاغة. واتّخذت البلاغة شكل الوصايا والإشارات التي تعلم الناس كيف يحصلون على النّجاة، وكيف يوفّرون النجاح في الحياة.

يجد مصطفى ناصف أنّ مفهوم البلاغة لم يكن واحدا في مواصفته للمسار اللّغوي في العصر العبّاسي. وقد اختلف من عصر بيئة إلى أخرى. فمدلوله عند بيئة الكتّاب غير عند بيئة البلغاء أو الشّعراء أو المتكلّمين، فكل بيئة كانت تعزف على وتر خاص من اللّغة واستعمالاتها. انّه يسلّط الضوء على مختلف أشكال اللّغة واستعمالاتها السّائدة في هذا العصر والمختلفة باختلاف هذه البيئة.

يكشف مصطفى ناصف النّقاب عن بيئة المتكلمين ويقف خاصّة عند المعتزلة موضّحا مذهبهم في اللّغة، وما أحدثوه فيها من تغيّرات، ومساهمتهم في إثراء فكرة البلاغة. لقد تميّزت هذه البيئة بتذليل اللّغة وتسخيرها للوقوع بالخصم والاستحواذ عليه. واحتاج المعتزلة إلى هذا التّسخير لأنّ مذهبهم لا يتلاءم مع ظاهر النّصوص. فألحّوا على مهارة التأويل اللّغوي، وشجّعوا النّاس على محبّة الاستنتاج البعيد وصرف الكلام عن ظاهره.

كما دفعتهم الرّغبة في الهجوم والتّغلب على الخصم إلى القدرة على اللّعب باللّغة وتحويرها حسب رغباتهم، وإلى التّخريج والإسراف وإسناد عناصر وهميّة إلى اللغة، وإحاطة التّركيب بجوّ أقرب إلى الألغاز. وأصبح هذا من مميّزات البلاغة والسّمة الأولى لها، كما أعطوا اللغة صفة المرونة بحيث من الممكن أن توجّه

[1] ينظر المصدر نفسه ص14.

يمينا ويسارا وفقا لما تقتضيه أهواء الباحث واعتقاداته. وبذلك فقدت اللغة كيانها وأصبحت ضعيفة قابلة للمزيد من التّخريجات.

ركّزت البلاغة غايتها على فكرة الإقناع والتّأثير لأنّها كانت ترى أنّ همّ الباث ينحصر في نقل شيء محدود ومعروف إلى السّامع. وعلى هذا يجب انتقاء طريقة الأداء وإزالة ما يمكن أن يعرقل الصّلة بين الباث والمتلقّي أو كما يقول مصطفى ناصف بعبارة أخرى: «افترضت الدّراسة البلاغيّة أن الإنسان لا يفكّر لوجه التّفكير، ولا يشعر لوجه الشّعور، وإنّما يفكّر من أجل التّأثير في مخاطب أو التّغلب عليه.[1]»

وبدل أن تنحصر جهود الباحثين في البحث عن الوظائف اللغوية والتّمييز بينهما راحوا يحاولون البحث عن نظام يتماشى وطبيعة العصر الذي ينتسبون إليه. هذا العصر الذّي كان من أهمّ خصائصه الصّراع بين الفرق المتنافسة في شؤون السياسة والدّين.

ومن الخصائص التي يسجّلها مصطفى ناصف لهذا النّظام البلاغي الذي كان المجتمع محتاجا إليه الاهتمام بالدّرجة الأولى بفكرة الحصول على المنافع وتجنّب المضار ولو كان ذلك على حساب البحث الموضوعي. وقد ظهر في وقت مبكر فكرة مخاصمة هذا النّظام للفكر الفلسفي والبحث البعيد عن كلّ تحيّز. كان هذا النظام وليد فكرة توجيه النّاس وسيادة السّلطة وتحقيق متعة غير عادية باللغة، بعيدة عن التفلسف وطلب المعرفة والبحث عن الأدلّة المحكمة بغية التّسليط على المخاطب من النّاحيّة العقليّة والوجدانيّة.

إنّ الجفوة التي كانت بين الفلاسفة واللّغويين حيث وقف الفلاسفة من الدّراسات اللّغوية والأسلوبيّة موقفا سلبيا، وبالمقابل أهمل اللّغويون ما يسمّى بالحاسّة الفلسفيّة جعل مصطفى ناصف يستخلص أنّ أنماطا الأساليب منذ القرن الثالث لم تكن سوى جملة من التّقاسيم دون الاهتمام بدراسة مضامينها. واعتني بتفكيك اللّغة بدل الكشف عن الرّوابط العقلية التي تربط بينها، وما الإكثار من هذه الأنماط إلا دليلا على ما كان ينقص هؤلاء اللّغويين من قدرة على كشف اتّجاهات أساسيّة محدّدة في الدّلالة. وبهذا تفرّقت اللغة ولم ينظر إليها على أنّها موحّدة ومجتمعة أو متكاملة.

ويثير مصطفى ناصف قضيّة هامّة تتمثل في كيفية تقييم اللّغة. لم يكن التقيّيم منبعثا من اللّغة ذاتها فيهتمّ بتحليلها والوقوف على خصائصها الفنيّة، وإنّما كان قبول اللّغة أو رفضها مرتبطا باعتبارات خارجيّة عنها. ومن النّتائج التي أفرزتها هذه الظّاهرة احتقار لّغة الحياة والحطّ من قيمة اللّغة العاطفيّة ومحاربتها تحت

[1] المصدر نفسه ص 176.

غطاء فكرة الابتذال، ورفض كثير من اللّغة وأنماط حرّيتها، وعدم مراعاة التّطابق بين المتكلم وكيانه الدّاخلي. وهكذا شجّعت البلاغة على أن يحدث هذا الشّرخ بين المرء ونفسه وعدم تشجيع انتماء الإنسان إلى نفسه ومجتمعه.

يسجّل مصطفى ناصف صورتين مختلفتين تماما في تاريخ أبحاث اللّغة العربيّة أو بالأحرى يشير إلى بلاغتين إحداهما نشأت في كنف الشّعر والثّانية في كنف القرآن الكريم، فالأولى قامت على مبدأ التّسليّة وسحر اللّغة، أمّا الثانية فكان شعارها البحث عن الحقيقة والدقّة.

يقف النّاقد مطوّلا عند مجال الدراسة القرآنية مسجّلا ما كان بينهما وبين النمط الأوّل من فرق كبير بحيث قلّلت من شأن المخاطب الذي يسعى المتكلّم إلى كسبه. إنّ الدّرس الأدبي في مجال البحث القرآني غير مرتبط بهذا المطلب بل كان أرقى من الدّعاية والمخاطب.

اعتنى بفكرة البحث عن الوجود الموضوعي للّغة. هذا الوجود الذي لا يمكن أن ينظر إليه أو أن يكتشف بالمعايير السّابقة التي حاول إرساءها المهتمّون بقضاء المآرب. وهكذا يمكن أن نميّز بين هاتين البيئتين «ففي بيئة البحث القرآني كانت اللغة عقليّة متّزنة دقيقة تهتمّ بالتّمييز بين الأشياء مهما يبلغ تشابهما هما بيئتان أو نظرتان مختلفتان[1].» ولهذا يرى أنّه من الضّروري على الباحث المعاصر التّنقيب عن هذه الصّورة المشرّفة التي أهملت في دراسات اللغة إهمالا كبيرا.

ومما هو معلوم أنّ اللّغة الأدبيّة تختلف وتتميّز عن اللغة التي تستخدم في النّشاطات العلميّة وغيرها، فإذا اعتبرت الأولى جزءا من النّص الأدبي فانّ الثانية لا تكون في بقيّة النّشاطات غير وسيلة، أو علاقة إشارية، وهذا ما لم يتفطّن إليه السّياقيّون ولم يكن واضحا لديهم. وفي معالجة مصطفى ناصف اللّغة من حيث طبيعتها واستعمالاتها خاصّة في مجال الشعر نقد هذا الاستعمال اللّغوي واستنكره عند السّياقيّين لأنّ اهتمامهم كان منصباّ على فنّ القول عوض التّعرف ذاته[2].

وفنّ القول المشار إليه يقصد به بعض الوصايا يذكر منها[3]:

- انتقاء أحسن ما يمكن أن يذكر في مواقف المناقشة المختلفة.

[1] المصدر نفسه ص 230.

[2] ينظر المصدر نفسه ص 414.

[3] ينظر المصدر نفسه ص 415.

- اختبار النّظام الذي ينبغي أن تدخل فيه القضايا والبراهين.
- ما الطّرق التي يجب أن يسلكها الإنسان كي يقرّب نفسه من الذين يستمعون إليه.

وممّا يلاحظ من هذه الإشارات أنّ القصد من اللّغة كان يدور حول تحقيق أغراض معينة، ولا يتمّ تحقيقها إلا إذا استجاب السّامع إلى المتكلّم، أو كان للمتكلّم القدرة على توجيه السامع إلى حيث يريد باختيار أحسن السّبل لذلك، أو ما يمكن القول، العناية والاهتمام بتحقيق رضا المتلقّي، أو على الأقل التّمكّن من الحصول على الوفاق الذي يتم بين المتكلّم والسّامع.

وبناء على هذا يمكن أن نلاحظ أنّ اللّغة لم يهتمّ بها، ولم تلق العناية الكبرى، وتجاهل النّقد السّياقي فاعليّتها. وهذا ما جعل موقف مصطفى ناصف مختلفا تماما عن موقف النّقاد السّياقيّين ممّا دفعه إلى الرّد عليهم: «اللّغة ليست مجرّد أداة للتّعبير أو توصيل رسالة مجهّزة من قبل: اللّغة تولّد معاني لم يكن لها من قبل وجود، اللّغة لها فاعليّتها المقرّرة، وهذه الفاعليّة تعني بعبارة أخرى، أنّ التّمييز البسيط بين الإشارة والتّعبير أقلّ من أن يوضّح مشكلة المعنى في الشّعور خاصّة.[1]»

مما يمكن استخلاصه أن النّقد السّياقي لم يلتفت كثيرا إلى أهميّة اللغة وفاعليّتها، وكانت قليلة الحظ من هذا الجانب ممّا أدى إلى أن تكون إمكاناتها محدودة، حيث عُدّت في نظر هذه الفئة من النّقاد السّياقيّين مجرّد وعاء ينقل ما يحويه، وفي ضوء هذا كان الفصل ممكنا، وطريقة يمكن نهجها للوصول إلى فهم معاني النّص الأدبي وهذا ما لم يحبّذه مصطفى ناصف ويراه مضّرا باللّغة، وغير قادر على استيعاب دلالات النّص الأدبي، والأكثر من ذلك يعتبره سبيلا مضلّلا لأنّ «ثنائيّة اللّغة معناها أن اللّغة أداة سلبية، فطورا تشير إلى الخارج، وطورا تعبّر عن أنفسنا، ولكنّ اللّغة ليست مجرّد مستودع للمعاني التي من قبل الذّات، أو الشيء الخارجي، اللّغة عنصر فعّال في تكوين المعنى نفسه.[2]»

يرمي النّاقد من خلال هذه الرّؤية إلى أن ننظر إلى اللّغة بنظرة ايجابيّة وأن نعدّها وسيلة فهم ومعرفة وخلق فنّي مستقلّ، وغير مسخّرة لخدمة البلاغة المتميّزة عن الثقافة[3] كما كانت نظرتها وكان شانها عند النّقاد القدماء.

[1] مشكلة المعنى في النّقد الحديث، مصطفى ناصف، 1970، مكتبة الشباب القاهرة ص 54.

[2] المصدر نفسه ص 54.

[3] ينظر اللغة بين البلاغة والأسلوبية، مصطفى ناصف، ص 42.

وممّا هو جدير بالذّكر أنّ غاية البلاغة كانت تتمثل في تحقيق الاقناع والتّقرير والتّأثير والزّينة وكانت تعتبر هذه الأمور من أولى أولويّاتها وهو مالم يحبّذه مصطفى ناصف ويرفضه تماما في العمل الأدبي، ونظر إليها على أنّها موانع وحواجز يتطلّب من الأديب ألا يعتني بها في ذاتها[1].

والمستخلص من هذا أنّ معظم مباحث اللّغة كانت تتحور حول قضايا جماليّة بلاغيّة أكثر منها جماليّة ثقافيّة، وبما يمكن أن نقول، إنّ البحث أهمل الجانب الثّقافي الذي يعتبر جوهر اللّغة ولبّها، وأرجع مصطفى ناصف هذا الإهمال إلى أسباب وظروف، إنّه يرى بناء على كون اللّغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم- «نشأت دراسات كثيرة من أجل توقير اللّغة توقيرا غريبا، بمعزل عن الثّقافة الواضحة، وأعطي لفظ الطّبع ذلك المفهوم الغيبيّ الذي يستغني عن الثقافة، ومواجهة الأشياء مواجهة لا تخلو من الاختبار...والتحدي نشأت أبحاث كثيرة، لتقاوم في عناد وصلابة مبدأ الربط بين اللغة والثقافة، إن ربط الظواهر الأسلوبيّة بالثقافة لم يخطر في أذهان المتقدّمين[2].»

إنّ المتمعّن في هذا النّص يصل إلى معرفة ما سبّبه هذا الخوف وما أدّى إليه من كبح جماح اللغة وعدم إطلاق العنان لها وإعطائها الحريّة الكاملة للتّطور من خلال مواجهتها لمظاهر الثّقافة واصطدامها بها، الشيء الذي تولّد عنه جمود اللّغة وسلبيّتها، إنّه موقف عاطفي مفعم بمشاعر التّمجيد والتّقديس لم يحقّق شيئا مذكورا، وكان من الأجدر أن يتّسم موقفهم بنظرة عقلانيّة بحيث تجعل من اللّغة وسيلة للتّعامل والتّفاهم في شؤون الحياة والدّين معا[3] ولكن «لأمر ما، تصوّرت جماعات كثيرة،،، أنّ اللغة العربيّة يمكن أن تتعرّض للتّدمير من مناطق الفلاسفة وأشياعهم، حيث يفتح باب التّأويل على مصراعيه.»

وقد اعتقدت هذه الجماعات أنّ اللّغة العربيّة في خطر وانّه يراد ضربها في العمق «وانّه لابد من حمايتها من أهواء الفلاسفة الشّعوبيّين والملاحدة. وتحت وطأة هذا التّصور، نشأت أفكار كثيرة من أهمّها اعتبار الكلمات معان ثابتة.[4]»

إذا ما دقّقنا النّظر في هذا كلّه لاستخلصنا أنّ هذا الموقف يعود إلى ثلاثة أسباب هي: سبب سياسي، وسبب عرقي، وسبب ثقافي. تعدّ هذه جميعها عوائق وحواجز تقف حجر عثرة أمام نشاط الفكر.

[1] ينظر المصدر نفسه ص 42.

[2] المرجع نفسه ص 48-49.

[3] اللغة بين البلاغة والأسلوبيّة، مصطفى ناصف، ص 59.

[4] المصدر نفسه ص60.

كما أنّها تجعل اللّغة ثابتة أو مستقرّة بعيدة عن أي محتوى ثقافي أو حضاري، ممّا يؤدّي ذلك إلى تضييق الخناق على الأدباء.

يريد النّاقد من الأديب أن يخوض غمار كل الميادين، وأن يتغلّب على كلّ الحواجز والموانع، وأن يتعامل مع جميع النّشاطات الإنسانيّة، وأن يستفيد منها ويوظفها في إبداعه، وينشئها في إطار لغوي جميل[1].

ويمكن تسجيل عدّة مواقف تخشى التّطور اللّغوي وتنظر إليه بعين الحذر والتّردّد والعمل على التمسّك بالماضي والمحافظة عليه.

وضعت اللّغة موضعا أقرب إلى الحذر والخوف، وهذا ما يجسّده موقف جماعة الديوان حيث «تبدأ من نقطة الشّعور، وتفصل بين الشّعور واللّغة، ويتردّد عشرات المرّات قول العقّاد معجبا إنما الشّاعر من شعر ويشعر. ولكن لا يسمح العقاد مطلقا بالمزاوجة والتّفاعل بين اللغة والشّعور، أي بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، بل الأمر على العكس من ذلك، الشّعور أو الوجدان حقيقة سابقة وحقيقة منفصلة عن اللّغة.[2]»

وما يستخلص من هذا النّص أنّ الرّواد لو يريدوا الخروج عن نظام اللّغة القديم، والابتعاد عنه، فإذا كان ولاء اللّغة إلى المجتمع، فقد أصبح هذا الولاء عند المحدّثين-خاصّة عند جماعة الديوان-إلى الفرد وعواطفه، وظلت قضيّة الفصل موجودة بين اللغة والفكر عند القدماء، وبين اللّغة والشّعور أو العاطفة عند هؤلاء، وما ينشده مصطفى ناصف هو أن تكون «اللّغة هي المظهر الإنسانيّ لأرقى للفرار من الفرديّة، وإعلان الولاء لفكرة التّعرف. والتّعرف بطبيعته هو عمل مجاوز للشّعور.[3]»

وهذا هو المنهج السّليم الذي يراه مصطفى ناصف صالحا لتطوّر اللّغة ونموّها من داخلها، ومن خلال تفاعلها وتقاطعها مع الثقافات، مستفيدة منها ومؤثرة فيها. وقد وقف النّاقد عند الجدليّة القائمة بين الفكر واللّغة ولم تغب عنه، فنبّه إليها بقوله: «إنّ مشكلة الفكر واللّغة شديدتا التّداخل والتّشابك، ولا نستطيع مناقشة إحداهما مناقشة مثمرة بمعزل عن الأخرى، ولكنّ اللّغة والفكر ليس شيئا واحدا تماما... وهما مسألتان متمايزتان إلى حّد ما.[4]»

[1] ينظر المصدر نفسه ص 48-49.

[2] قراءة ثانية لشعرنا القديم، مصطفى ناصف، د ت، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ص 20.

[3] المصدر نفسه ص 21.

[4] المصدر نفسه ص 21.

لقد انتبه مصطفى ناصف إلى مجموعة من الأسئلة كانت موضوع تأمّلات رتشارز في مباحث كثيرة من بينها كيفيّة تأدية الكلمات وظائفها. وكيف لا نتمكّن من إدراك هذه الوظائف. ولم يكن فحصنا للّغة تارة مصيبا فيؤدّي إلى نموّ خبراتنا وتارة أخرى مخطئا، ممّا جعله يهتمّ اهتماما كبيرا بتتبّع أهم معالم فلسفته في البلاغة، ويدعو إلى البحث فيه معتبرا إيّاها أدوات مفيدة تساعد على فهم أفضل واتّصال أحسن.

وممّا شاع في أوساط الكثير من القرّاء أنّ اللغة لا تشكّل إلا عائقا يمنع من الوصول إلى الأفكار وفهمها، ولذلك نادوا بفكرة فصل الأفكار عن اللغة أو العلاقات الأخرى التي تحيط بها. ويرى النّاقد أنّ هذه الفكرة ينتج عنها كثير من سوء الفهم، ويعتبر ذلك من الأمور المستحيلة «إنّ الفكرة تتحدّد بالأثر الذي تنتجه، وهو الكلمات، وسائر الإشارات المحيطة بها.[1]»

وهكذا يرى مصطفى ناصف أنّنا في حاجة إلى تناول آخر للّغة، فالغاية من تناولها هي تزكية مبادئ الحياة التي نعتز بها، ونسعى إلى تنميتها بكشف الجانب الذّاتي وطموح الفرد ومعاناته عوض أن تبقى مجرّد دعاية وإطلاق أحكام لا معنى لها ولا تخدم الإنسان.

وينتج عن استعمالات اللّغة أضرار جمّة. فقد تبسّط الأمور الصّعبة دون التّعويل على أسباب موضوعيّة، وتجنّبنا تحمّل مشقّة الفهم والتّعمق في إدراك حقائق الأشياء، وتقرّب الأمور المتباعدة. وهي في ضوء خطاب الجمهور تجني على مبدأ المعرفة الصّعبة، وتلفت انتباهنا إلى جانب دون آخر، وتبثّ فينا الانفعال حين نكون محتاجين إلى التفكير والتّأمل.

وعلى هذا فنحن في حاجة إلى توسيع مجال الدّراسة اللّغوية للتّمكن من اكتشاف هذه المخاطر، وتدارك هذا النّقص، وأن نعي بأنّ الشّعر لا يمكن أن ينبني على فكرة التّأثير التي تجعل الإنسان غير قادر على التّمييز، ولذا يلحّ مصطفى ناصف على أن يشعر الإنسان في كل وقت «بأنّ التّعرف عمل صعب، وأنّ التفكير ينبغي أن تذلّله ثروة لغويّة لا أن تكون هذه الثروة اللّغوية أو الميراث الشّائع بين النّاس عائقا يحول دون الفهم.»

وهكذا يدعو مصطفى ناصف إلى تأسيس بلاغة حديثة، فيعرض جملة من التّصورات التي ينبغي أن تكون عليها الدّراسة اللّغوية الحديثة وبهذا يكون بصدد إرساء تربية لغويّة على دعائم أخرى تختلف على تلك الدّعائم المتداولة.

[1] المصدر نفسه ص 412-414.

كانت هذه نظرة مصطفى ناصف من قضيّة اللغة وتطوّرها أو جمودها، وقد اتّضح لنا كيف أنّه تمكّن من التّمييز بين اللّغة الأدبيّة واللّغة العلميّة أو الاشاريّة، إضافة إلى ذلك أبرز أثر النّقد السّياقي على هذه المسألة اللّغويّة.

References

[1] Abū Ḥayyān al-Andalusī, Irtishāf al-ḍarb min Lisān al-ʻArab, tḥ : Rajab ʻUthmān Muḥammad, Ṭ1, Maktabat al-Khānjī, Miṣr, 1418h / 1998M.

[2] Al-Lughah bayna al-balāghah wāl'slwbyyh, D Ṭ, 1989, Maṭbaʻat alnnādy al-Adabī al-Thaqāfī, alsʻwdyyh.

[3] Tārīkh al-balāghah al-ʻArabīyah, ʻAbd al-ʻAzīz ʻAtīq, D Ṭ, Dār alnnhḍh al-ʻArabīyah, Bayrūt.

[4] Mushkilat al-maʻná fī alnnqd al-ḥadīth, Muṣṭafá Nāṣif, 1970, Maktabat al-Shabāb al-Qāhirah.

[5] Qirā'ah thānīyah lshʻrnā al-qadīm, Muṣṭafá Nāṣif, D t, Dār al-Andalus llṭṭbāʻh wālnnshr wālttwzyʻ.

[6] Muḥāḍarāt ʻilm alnnfs al-tarbawī, Ḥanafī ibn ʻĪsá, Ṭ 2, 1980, sh-t-n-t, al-Jazā'ir.